Al Kufa: the Origin and Name; Social & Political Life

Ali Abdulabas Hassan, Ph.D Candidate
Email: ali.abd1108a@coart.uobaghdad.edu.iq
Prof. Nahidh Abdulrazzak Daftir AlQassi (Ph.D)
College of Arts, University of Baghdad

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v2i145.4151

Abstract:

Al Kufa is one of the Islamic cities that enjoyed a special historical status, since it has a spiritual and civil presence in the history of the Islamic nation and the religious non-Islamic sectors. Originally speaking, the city was built on top of the remains of a Parthian city belonging to Vologases I (51-78AC). It is mentioned in the Bible 1st testament by the name of Akwala or Agola. Accordingly, historically, it is a Syriac city; while spiritually and religiously it is known as the home of the prophet Noah (Peace Be Upon Him) and the very place of which the holy fire of Noah evolved.

The term 'Kufa' comes from the term's meaning and its linguistic references. Al Kufa in Lexical dictionaries is an utterance that refers to the land that has red sand or round sand, according to linguists it is the sand that is mixed with gravel. There is an opinion related to the fact that when the Islamic leader Saad Bin Abi Waqas decided to build Al Kufa he said to his soldiers "Takawafo fi Hadha Al Makan" meaning, Gather in this spot of land.

The establishment of the city of Al Kufa was military necessity, as it provided logistic support to the Islamic army that was the conqueror and the liberator of the lands outside the borders of Arabian peninsula. That is due to the importance of the geographical location of the area of Kufa, which created the need for a military camp and a location that may provide a strategic depth for the Islamic faith to spread more among other nations. That is in addition to what the area enjoys of the geographical features of being at the edge of the desert and it provided the healthy conditions for the life of Arabs and their animals.

For all the above reasons, Arabs chose Al Kufa to be the second Islamic city that was established after Al Basrah in 17H. / 638-639AC. Kufic society extended largely in the political life of Muslims. The city of Al Kufa is known for being politically stubborn, they were led by Imam Ali bin Abi Talib (Peace be Upon Him) (35-40H./ 656-660AC). He managed to spread the spirit of justice and equality among Arabs and those who lived in the city of non-Arabs and of other religious beliefs. He even commanded one of his employees in Kufa saying: "Beware not to hit a Muslim or a Jewish or a Christian, asking for Kharaj money [Islamic tax] or selling a working animal for tax, we are commanded to forgive and tolerate", hence the Jewish and Christian with their fellow Muslims a share of religious tolerance and charity from the Righteous Caliphs (May Allah praise them)

Key words: The City of Al Kufa, AL Kufa, Political life

مدينة الكوفة: النشأة والتسمية، حياتها الاجتماعية والسياسية

الباحث علي عبد العباس حسن الفتلاوي **أ.د ناهض عبدالرزاق دفتر القيسي**
جامعة بغداد/كلية الآداب/قسم الآثار **أستاذ متمرس/كلية الآداب/جامعة بغداد**

(مُلَخَّصُ البَحث)

الكوفة من الامصار الاسلامية التي تمتعت بمكانة تأريخية خاصة، فقد كان لها حضور روحي وحضاري في تأريخ الأمة الإسلامية والطوائف الدينية غير المسلمة، مدينة بالأصل قامت على انقاض مدينة فرثية تعود الى الملك فولكاش الاول (٥١- ٧٨م)، فقد وردَ ذكرها في التوراة باسم (عاقولا) وهي بذلك تُعَد مدينة سريانية من الناحية التأريخية، أما الجانب الروحي والتعبدي فقد عُرفت على أنها منزل نوح (عليه السلام) والمكان الذي فار منه التنور.

ان تسمية الكوفة جاءت بناءً على معانيها ومدلولاتها اللغوية، فالكوفة تعرفها المعاجم اللغوية على انها لفظ يطلق للدلالة على الأرض ذات الرملة الحمراء أو الرملة المستديرة، والكوفة عند اللغويين تعني الرملة التي تخالطها حصباء، وهنالك رأي بشأن تسميتها ايضاً ذلك أنه لما اراد القائد سعد بن ابي وقاص بناء الكوفة قال لجنده" تكوفوا في هذا الكان" أي اجتمعوا فيه. ولتمصير الكوفة ضرورات من الناحية العسكرية فكانت توفر نوعا من الدعم اللوجستي لجيش المسلمين الفاتح والمحرر لمناطق خارج حدود الجزيرة العربية وذلك لما تتمتع به منطقة الكوفة من موقع جغرافي مهم، وكان لابد من معسكرٍ وموقع يوفر لهم هذا العمق الاستراتيجي في رفد عمليات نشر العقيدة الاسلامية بين الامم، كما تمتعت المنطقة بصفات جغرافية لوقوعها على اطراف الصحراء وتوفر الشروط الصحية الملائمة لعيش العربي ودوابه.

لكل ما تقدم نزلها العرب وكانت ثاني الامصار الاسلامية التي مصرت بعد البصرة سنة ١٧هجرية، وكان للمجتمع الكوفي مد كبير في الحياة السياسية للمسلمين، فقد عرف عن الكوفة بانها صعبة المراس سياسياً، اذ اساسهم الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) (٣٥-٤٠هـ/٦٥٦- ٦٦٠م) فجسد فيهم روح العدل والمساواة بين العرب والموالي حتى اوصى أحد عماله على نواحي الكوفة: " إياك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً في درهم خراج أو تبيع دابة عمل في درهم فإنا أُمرنا أن نأخذ منه العفو" وبذلك نال اليهود والنصارى مع المسلمين نوعا من التسامح الديني والاستحسان من الخلفاء الراشدين (رضيَّ الله عنهم).

الكلمة المفتاحية: مدينة الكوفة، الكوفة ونشأتها، حياتها السياسية.

التسمية والنشأة:

تتمتع ارض الكوفة بالمكانة الروحية والتأريخية والحضارية، فقد كانت مُراد الاقوام من كل الطوائف الدينية والاديان السماوية، ولها مكانة سامية قبل ان يعرفها العرب، فالكوفة ثاني المدن التي انشأها المسلمون خارج حدود جزيرتهم العربية، ووصفها الامام علي (عليه السلام) حين عودته من البصرة وقد اقبل عليها فقال: "ويحك يا كوفان، ما أطيب هواءك، وأغذى تربتك، الخارج منك بذنبٍ، والداخل اليك برحمةٍ، لا تذهب الايام والليالي، حتى يجيء إليك كل مؤمن، ويبغض المقام بكِ كل فاجر، وتُعْمَرين".(الدينوري،١٩٦٠م،ص١٥٢)

لقد جاء في بعض التفاسير للآية القرآنية الكريمة: ((وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣))) (سورة التين،الاية١-٣)

عن ابي الحسن موسى بن جعفر، عن ابيه، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (صلى الله عليه واله وصحبه وسلم): ((إن الله تبارك وتعالى قد اختار من البلدان اربعة، فقال عز وجل: ((وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ)) التين: المدينة، والزيتون: بيت المقدس، وطور سنين: الكوفة، وهذا البلد الامين: مكة المكرمة. (الصدوق،٢٠١٤م،ج٢،ص٢٧٢)

ان تسمية الكوفة جاء بناء على معناها ودلالاتها اللغوية. فالكوفة في معاجم اللغة تدل على الرملة الحمراء او الرملة المجتمعة او المستديرة، والتكوف من التجمع والكُوفةُ بالضمِ تعني كل رملة تخالطها حصباء، وقيل سميت الكوفة بهذا الاسم لما اراد سعد ابن ابي وقاص ان يبني الكوفة ،قال لجنده: "تكوفوا في هذا المكان" اي اجتمعوا فيه(ابن منظور،١٩٩٣م،ج٩،ص٣١١) ، وقد عرفها السريان باسم "عاقولا" وهي مدينة قامت على بقايا مدينة فرثية بناها الملك "فولكاش الأول (٥١-٧٨م)".(قزانجي،٢٠١٠م،ص٨١)

والكوفة قديما ذكرت في التوراة باسم "عاقولا" وهي مدينة سريانية ثم مصرها المسلمون ايام سعد ابن ابي وقاص وكانت منزل نوح (عليه السلام)، ويقال لها ايضا كوفان وكوفة الجند وتعد مدينة العراق الكبيرة،(الفيروزآبادي،٢٠٠٥م،ص٨٥١،ص١٠٣٤) وكلمة عاقولا الكلدانية تعني "عَوْجَة أو فتلة الطريق، وعثرة" (المطران يعقوب،د.ت،ص٥٦٠) وكذا تتفق مع بعض المعاني في المعاجم العربية، وهي تكوف القوم أي استداروا، والقوم في كوفان أي في أمر مستدير أو مختلط والملتبسة الامور.(البلاذري،١٩٨٨،ص٢٧٤)

الكوفةُ بالضم هي المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق وقد سميت ايضا (بخد العذراء) وان اسم الكوفة مشتق من كلمة الكوفان اي البلاء والشر اذ يقال "القوم في كوفان" اي في امر يجمعهم،(ابن سيده ،١٩٩٦م،ج١،ص٣٣٠) ، ونستطيع القول ان تسمية الكوفة بهذا الاسم قد عرف عندما مصرها العرب المسلمين، اذ لم تذكر المصادر التأريخية الى

تسمية هذا الموضع بهذا الاسم قبل الإسلام، وان اختيار مدينة الكوفة جاء بعد معركة القادسية بسنتين وشهرين وذلك في شهر المحرم من سنة سبع عشرة للهجرة / ٦٣٨ ميلادية. (البلاذري،١٩٨٨م،ص٢٧٤).

لقد توافرت في موضع الكوفة اعتبارات ومضامين استراتيجية لفتت اهتمام الاقوام التي سبقت العرب في التعرف على المنطقة قبل العرب أنفسهم، فقد كان موضع الكوفة محط اهتمام القيادات العسكرية الفارسية وأعدته مفتاح السيطرة على ارض السواد، ثم توجهت انظار العرب المسلمين لهذا المصر وفقا للمعطيات والاستراتيجيات في اختيار مواضع المدن في الفكر العربي الاسلامي، فمن الناحية العسكرية كانت الكوفة تلبي الضرورات العسكرية لما توفره بادية الكوفة من اتصال طبيعي بالجزيرة العربية التي تمثل مركز القيادة العسكرية العليا وموقعها المدينة المنورة، وهذا بدوره يسهم في ديمومة الدعم اللوجستي لحركات التحرر الاسلامية، فضلاعن مايوفره الموقع من عمق استراتيجي لقواعد الجيوش العربية الاسلامية في حالة الكر على الجيوش الفارسية التي كانت مسيطرة على اجزاء من هذه المنطقة وتأمين عمليات الانسحاب اذا ما استدعت الضرورة الحربية لغرض اعادة تشكيل القوات ومواصلة زحفها نحو الاهداف الموضوعة لها. (العميد،١٩٧٨م،ص١٠٦)

كانت العرب تبحث عن مقار وامصار بكر ليس في العراق فحسب وانما انتهجت هذه الاستراتيجية في اغلب الاقاليم باعتبار ان التمصير له اوجه متنوعة منها تلك البلاد التي يُسلمْ عليها اهلها كالمدينة والطائف، ومنها الارض التي لم يكن لها اهل فاختطها العرب المسلمون ونزلوها كالبصرة والكوفة، ومنها ما فتحت عنوة فتوزع بين اللذين افتتحوها مثل خيبر، ولعل انتهاجهم هذا الاسلوب (تمصير المناطق غير الآهلة بالسكان) كان لدوافع حضارية واجتماعية من حيث الاستيطان في مراكز مؤهلة ومدن مؤسسة سلفا، يخلق حالة اختلاط بالسكان القدماء والتطبع بعاداتهم التأثر بأخلاقهم مما ينعكس سلبا على سمات العروبة التي عرفوا بها، فضلاً عن الجانب الامني والخوف من دسائس ومؤامرات السكان الأصليين، وبذلك تكون اختيارات المراكز الجديدة تخضع والعسكرية والاجتماعية وجاء اختيار موضع الكوفة وفقا لهذه الاعتبارات. (ابن سلام، د. ت، ص١٢٦؛ العلي،٢٠٠٣م، ص٥١)،وأقول ان الاكتشافات الاخيرة في مجال التنقيبات الاثرية فقد تم العثور على عمائر من قصور وكنائس واديرة حواليها وبالقرب منها جعل الاطمئنان الى كونها كانت منطقة ضمن مثلث حضاري عبر التأريخ وليس بالمصر البكر.

لقد توفرت الصفات الجغرافية (المناخية) في موضع الكوفة من خلال موقعها على طرف الصحراء وهذا شرط مهم اشار اليه الخليفة عمر بن الخطاب (رض) (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م)، في اختيار المدن الأولى، كما توفرت فيها ايضا الشروط الصحية

المناسبة لعيش العربي وقد استدل سعد الى هذا الموضع بدلالة " نفيلة الغساني" فقد اجمل وصفها لسعد بأنها "ارض مرتفعة عن المباق وانحدرت عن الفلات وينبت فيها الخزامى والاقحوان والشيح والقيسون وغيرها"(البلاذري،١٩٨٨م،ص٢٧٧) ، ووصف ابن القرية الكوفة للحجاج بن يوسف الثقفي(٧٥-٩٥هـ/٦٩٤-٧١٣م) بقوله "الكوفة ارتفعت عن حر البحر، وسفلت عن برد الشام، وطاب ليلها، وكثر خيرها".(ابن العماد،١٩٨٦م،ج١، ص٣٤٥)

وفي ذكر للأمام علي (عليه السلام) قول في الكوفة ورفعة شأنها ودورها التأريخي، فقد قال "كأني بك يا كوفة، تمدين مد الاديم العكاظي، تعركين بالتوازن وتركبين بالزلازل، وأني لأعلم انه ما اراد بك جبار سوء الا ابتلاه الله بشاغلٍ ورماهُ بقاتل"(الموسوي، ١٩٩٨م، ج١، ص٣٣٦)، وذكر الخليفة عمر (رضيَّ الله عنه) الكوفة واهلها بنعوت مختلفة فقد ذكر في كتبه يخاطبهم بـ (أهل الكوفة رأس العرب)، والكوفة وجوه الناس، وكتب يخاطبهم ايضا "الى اهل الكوفة، الى رأس الاسلام" وقال بذكره اياهم مقولته المشهورة "هُم روح الله وكنز الايمان وجمجمة العرب، يحرزون ثغورهم ويمدون اهل الامصار". (ابن سعد،١٩٩٠م، ج٦، ص٨٦)

والاصطخري (المسالك والممالك، ٢٠٠٤م، ص٨٢) يصف الكوفة في حجمها بانها بقدر البصرة في الكبر وهواؤها اصح وماؤها اعذب وتقع على نهر الفرات، وقد تميزت عن مصر البصرة بأنها مدينة خراجية اي ضياعها جاهلية قبل الاسلام، بخلاف مدينة البصرة التي احياها المسلمون واعتبرت ارض احياء موات في الإسلام، ويروي البلاذري ان عمر بن الخطاب(١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م)، كتب الى سعد ابن ابي وقاص يأمره ان يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا وان لا يجعل بينه وبنهم بحرا، فكانت الانبار المحطة الاولى في الاختيار واتخاذها منزلا لهم، الا ان المشكلة البيئية في كثرة الذباب انتقل الى موضع اخر وهذا ايضا لم تثبت صلاحيته للإقامة، ومنها تحول الى موضع الكوفة بدلالة عبد المسيح بن نفيلة الغساني (البلاذري،١٩٨٨م،ص٢٧١)، ذلك ان سعدا لما فرغ من وقعة القادسية توجه الى المدائن وافتتحها الا ان مركز الخلافة وجه سعد ابن ابي وقاص بالتحول من اتخاذ المدائن مقرا لجنده باعتبارها عاصمة كسرى ومركز مواليه وصفوة جنده، وسبب عدم اتخاذ المدائن والتحول عنها لربما كان لدواعي امنية خشية اهلها كونهم كانوا لدهر طويل يخضعون لحكم الفرس فلا يؤمن ولائهم للمسلمين بأعدهم حديثي عهد بالإسلام. (البلاذري، ١٩٨٨م، ص٢٧٠)

كانت مدينة الكوفة في تخطيطها تتبع نفس التصميم الاساسي الذي عرفته المدن التي تأسست في بدايات الفتح العربي الاسلامي، فقد كان المسجد في قلب المدينة بأعده الرمز الروحي للمسلمين والمؤسسة الدينة العليا في المصر، يجانبه دار الامارة الذي يمثل قمة الرمز السياسي والرسمي للدولة، وكانا في مقام المرتفع مكانيا لما لهما من رمزية خاصة، كما أفاد البلاذري في روايته " تم وضع مسجدها ودار أمراتها في مقام العالي وما حوله" (البلاذري،١٩٨٨ م، ص٢٧١) وعقب اختطاط المسجد ودار الامارة اختطت خُطط القبائل، فقد كانت في بداية نشأة الكوفة استعملت الخيام وفقا للمتطلبات العسكرية للجند غير ان الامر تحول بعد الاستقرار المؤقت للجند وعوائلهم الى التشييد بمادة القصب والخوص لوفرتهما في المنطقة كمادة اولية في تشييد مساكنهم وتناسبها لطبيعة العيش آنذاك بأعدهم جند فاتحون يتنقلون وفقاً لمقتضيات حركات التحرر ودور جبهة الكوفة في تقديم الدعم اللوجستي وادامة زخم الفتوحات للأمصار الأخرى، ولكن بعد الحريق الذي حصل في المصرين البصرة والكوفة وكان اشدها في الكوفة استأذنوا الخليفة عمر(رضي الله عنه) البناء باللبن، فأجابهم بان لا يرفعوا البنيان على ثلاثة ابيات وارسل لهم كتابا في توزيع المناهج (الطرق الرئيسية) والازقة والقطائع فجعلت المناهج اربعين ذراعا وما يليها ثلاثين ذراعا وما بينهما عشرين ذراعا والازقة سبع اذرع والقطائع ستين ذراعا (الحموي،١٩٩٥م،ج٤،ص٤٩١)، فكانت للكوفة شوارع حقيقية تعرف ب(السكك) وسميت هذه السكك بأسماء بطون قبائلها وبطبيعة الحال يكون مآل هذه التسميات للسكك والدروب نحو التغير والتبدل حسب العصور والازمنة، واحتوت الكوفة ايضا على مفارق طرق، كما خلت المدينة من السور او خندق يحاط بها حتى زمن الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور(١٣٦- ١٥٨هـ /٧٥٤-٧٧٥م)، فقد حفر خندقا كبيرا حول الكوفة يأخذ ماؤه من الفرات ، كما خلت الكوفة من الآبار في القرن الاول الهجري وذلك لقربها من ضفة نهر الفرات اذ يزودهم بالمياه، وكانت خطط وقطائع الكوفة بنوعين هي: القطائع القبلية الجماعية واخرى قطائع شخصية لوجوه المجتمع من الصحابة والقادة كدار طلحة والزبير وأبو موسى الاشعري وعبدالله بن مسعود وسلمان الباهلي والخباب وعدي بن حاتم الطائي وبعض بيوت امية كدار الوليد واخيه عمارة ابناء عقبة ودار جابر بن عبدالله الانصاري ودار ام هاني اخت الامام علي وغيرهم من النخبة (ماسنيون، د. ت، ص٣٦-٣٨)، وبقيت الكوفة تبنى باللبن الى ايام حكم زياد بن ابيه للمدينة سنة ٤٩هجرية فقد بدأت المداخل والابواب تبنى بالأجر واقتضى استعمال الاجر كعنصر زخرفة للواجهات من المداخل استعملوا ايضا في بناء دور الاشراف، اما عامة الناس فقد اتخذت من اللبن المادة الاساسية في بناء دورهم خلال العصر الاموي لما يتمتع به من مزايا كونه مادة بنائية اثبتت فاعليتها على تحمل بناء

اكثر من دور بنائي واحد وخير مثال ما تشهده دور وعمارة اليمن المبنية من الطوب المتعددة الطوابق والوحدات البنائية (جعيط،١٩٩٣م، ص٢٢٦)، ولم يكن لهذه المدينة سور كما هو الحال في غالبية المدن الاسلامية فقد اغفل بناء الاسوار حولها على اعتبار انها قاعدة عسكرية ومقر لإقامة الجند وعوائلهم لذا تكون محمية ذاتيا لوظيفتها العسكرية، فضلا عن استمرار توسع المدينة وتطورها العمراني الذي يمنع حصرها في سور، اذ بقي الحال في المدينة على ذلك الى ايام تولي المنصور العباسي الحكم(١٣٦- ١٥٨هـ /٧٥٤-٧٧٥م)، فامر ببناء سور وخندق لمدينة الكوفة لضرورة تحصينها، وقد تحمل اهلها تكاليف بناء السور والخندق اذ أخذ من كل فرد اربعون درهما (الزبيدي،١٩٧٠م،ص٣٥) ، ويظهر انه لم يدم طويلا فمن خلال اشارات الرحالة الذين زاروا الكوفة في القرنين السادس والسابع الهجريين وصفوها بان لا سور لها (ابن جبير، د.ت، ص١٨٧).

الحياة السياسية لمدينة الكوفةّ

ان الطابع السياسي للمجتمع الكوفي لم يكن هيّنْ الطباع، ذلك ربما يعود لألوان الطيف الديموغرافي في الحياة الكوفية، فقد ضمت بودقة المجتمع الكوفي العربي والفارسي والنبطي ومن الاديان هناك الدين الاسلامي الذي كان السبب في نشأتها والديانة اليهودية والمسيحية التي سبقت الاسلام في حدود المنطقة، وصعوبة المراس في الحياة السياسية يبدو لم تكن نشأة مؤخرا في مجتمعهم وانما بدت بوادرها منذ عهد الخلافة الراشدية ايام خلافة عمر بن الخطاب (رضيَّ الله عنه)(١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م)، اذ تشير الوقائع التاريخية انهم انكروا على ولاية سعد ابن ابي وقاص اقامة العدل والانصاف في حكمه للمصر فشكوا ذلك من خلال وفدا سعى الى الخليفة عمر، شكوا عدم حسن سعدا للصلاة وعدم اقامة العدل والسوية بين القوم، فأوفد الخليفة عمر رجالا يتوخون الحقيقة فكانوا لا يأتون مسجدا من مساجد الكوفة الا ذكروه خيرا واثنوا عليه معروفا حتى جاؤوا مسجدا من مساجد بني عبس فذكره رجلا يقال له ابو سعده فقال عنه "كان لا يقسم بالسوية ولا يعدل في قضية فقال: "اللهم اذا كان كاذبا فأطل عمره وأدم فقره وعرضه للفتنة" فقال احدهم: " اني رأيته يتعرض للإماء في السكك فاذا سألوه كيف انت يا ابى سعده، اجابهم "كبير مفتون اصابتني دعوة سعد"، وقد عزل عمر(رضيَّ الله عنه) سعدا فولى عمار بن ياسر فصدرت الشكوى من اهل الكوفة وقالوا انه ضعيف بالسياسة فعزل بعد ولايته الكوفة سنة وتسعة أشهر، فولى مكانه المغيرة بن شعبة، وكانت قولة عمر(رضيَّ الله عنه) في اهل الكوفة "من عذيري من اهل الكوفة ان وليت عليهم القوي فجروه، وان وليت عليهم الضعيف حقروه".(البلاذري، ١٩٨٨م، ص٢٧٤)

ان الطيف المجتمعي في الكوفة منذ تمصيرها لم يكن يعتمد على العنصر العربي الخالص وانما نزلت الكوفة بعد معركة القادسية وحال تمصيرها جماعة من جند رستم بلغ تعدادهم الاربعة الالاف كانوا يسمون بجند شاه نشاه وقد اعطوا الامان ينزلوا حيث رغبوا ويحالفوا من احبوا، ويفرض لهم العطاء فكان لهم ما طلبوا وسماهم العرب حمراء ديلم، (البلاذري، ١٩٨٨م، ص٢٧٥) فضلا عن عنصر الموالي الذي اصبح موقفهم سلبي تجاه بعض الامراء والولاة العرب في الكوفة، فقد شكوا امر اضطهادهم وحرمانهم من الحقوق الى مقر الخلافة في صدر الإسلام، فما كان من الخلفاء الراشدين الا انصافهم وارجاع حقوقهم، فقد ساووا بين الموالي والعرب في العطاء منذ عهد الخلفاء ابو بكر الصديق (١١-١٣هـ/٦٣٢-٦٣٤م) وعمر بن الخطاب(١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م) وعثمان بن عفان(٢٣-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٦م) وعلي بن أبي طالب(٣٥-٤٠هـ/٦٤٤-٦٦٠م) (رضي الله عنهم)، وحتى زمن حكم عمر بن عبد العزيز(٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م)، حيث ان قوم قدموا على عامل لعمر بن الخطاب (رضيَّ الله عنه) منع العطاء عن الموالي فكتب اليه عمر(رضي الله عنه) " الا سويت بينهم"(ابن سلام، د.ت، ص٣٠٠ الرقم(٥٧٤)

لقد ساوى الامام علي ابن ابي طالب (عليه السلام)(٣٥ -٤٠هـ/٦٥٦-٦٦٠م) في العطاء والحقوق بين العرب والموالي فقد تجسدت روح العدالة في الحياة الاقتصادية ايامه ليس بين المسلمين سواء عربا او موالين وانما بين المسلم والنصراني، فقد رُويَّ عن رجل من ثقيف انه قال: " جعلني علي بن ابي طالب عاملا لجمع الخراج على بانيقيا ونواحي الكوفة فقال لي اياك ان تضرب مسلما او يهوديا او نصرانيا في درهم خراج او تبيع دابة عمل في درهم، فإنا امرنا ان نأخذ منه العفو"(المجلسي،٢٠٠م،ج٥،ص٢٧٨) ، وقد جعل عمر بن عبد العزيز(٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م)، العرب والموالي في العطاء والمعونة سواء(ابن سعد،١٩٩٠م،ج٥،ص٢٩٢) ، الا ان معاملة الموالي من خلال العرب شابها نوع من القسوة والجفاف اجتماعيا، فقد استنكروا زواج الموالي من العربيات وقد كتب الوالي عبد الحميد بن عبدالرحمن(٩٩-١٠٢هـ/٧١٧-٧٢٠م) الى الخليفة عمر بن عبد العزيز(٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م)، يستفتيه بارتيابه من وجود حالة وهي زواج الموالي من العربيات وزواج العرب من الموالي، فكانت اجابته لعامله عبد الحميد "اني نظرت فيما ذكرت فلم اجد احدا من العرب يتزوج الى الموالي الا الطمع الطبع، ولم اجد احد من الموالي يتزوج الى العرب الا الاشر البطر، ولا احرم حلال ولا احل حراما والسلام."(البلاذري، انساب الاشراف،١٩٩٦م، ج٨، ص١٨٨)

ويبدو ان هذا الحرمان والتفاوت في منح فرص الحياة لهؤلاء الموالي بعد عصر الخلفاء الراشدين قد اخل بتوازن المجتمع في الكوفة والذي بدوره انعكس سلبا على استقرار الحياة السياسية فيها، اذا ما علمنا ان عدد الاعاجم في هذا المصر ليس بالعدد القليل فكان مساويا ان لم يكن الاغلبية، لذلك كانت ردة فعلهم الالتفاف حول بعض الحركات المناوئة للسلطة يتحينون الفرصة للانتقام لحرمانهم حقوقهم المسلوبة ونظرة الاشراف من اهل الكوفة لأمرهم، ومن بين الحركات الثورية التي كانوا منخرطين فيها ثورة المختار الثقفي ضد الامويين وابن الزبير، وعندما اشار الاحنف على مصعب ابن الزبير (٦٨-٧٤هـ/٦٨٧-٦٩١م) في امر اصحاب المختار وكانت مشورة الاحنف " ان تعفو عنهم فان العفو اقرب للتقوى" ولكن الاشراف من اهل الكوفة من العرب قالوا "لا تعف عن هذه الموالي واضرب اعناقهم فقد بدى كفرهم وعظم كبرهم قل شكرهم وضجوا."(البلاذري، ١٩٩٠م، ج١٢، ص٣١٣)

لقد أثرت تقلبات الوضع السياسي في الكوفة على الحالة الاقتصادية في المجتمع الكوفي، حيث كسدت التجارة نتيجة لفقدان وعدم استتباب الامن في الطرق الخارجية وضواحي المدينة، فقد كان قدوم الحجاج بن يوسف اميرا على العراق سبب نوعا من الوبال الذي ضرب المدينة فقد بعث من مركز الخلافة الاموية مؤدبا ومتوعدا من يخالف سلطة الامويين، فقامت الثورات في حكمه لتعسفه وظلمه وتعطلت الحياة الزراعية التي كانت سببا لانخفاض الخراج الذي يعد العمود الفقري لإيرادات الدولة، ووصف أن الخراج زمن امارة الحجاج (٧٥-٩٥هـ/٦٩٤-٧١٣م) على الكوفة انحط انحطاطا كبيرا، فبعد ان اصبح خراج السواد ١٢٠مليون درهم زمن عمر بن عبد العزيز، كان في عهد الحجاج(٧٥-٩٥هـ/٦٩٤-٧١٣م) ١٠٠مليون درهم وذلك لعسفه وظلمه لدرجة انه منع اهل السواد من ذبح البقر لزيادة الحراثة والزراعة. (ابن خرداذبة، ١٨٨٩م، ص١٥)

لقد كان للموالي تأثيرا ملحوظا في الحياة السياسية للكوفة، من خلال استعدادهم وتحريضهم واشتراكهم في الحركات الثورية والمعارضة ضد الحكم القائم آنذاك، ولم يقف دورهم الى هذا الحد، بل قويت شوكتهم في الجانب الاقتصادي، وبازدياد عددهم في الكوفة لفتوا انتباه الخلفاء والامراء العرب، فقد دق ناقوس خطرهم على الزعامة العربية فبادر معاوية (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م) بكسر شوكتهم ووضع خطة لسحقهم، الا انه تراجع عنها للحاجة لهم ربما بعد محاولة استمالتهم، اذ قال: "اني رأيت هذه الحمراء قد كثرت، وكأني انظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت ان اقتل شطرا وادع شطرا لإقامة السوق وعمارة الطريق." وهنا نجد ان معاوية بن ابي سفيان(٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م) قد اتخذ قرارا بتصفية قسم منهم لخطرهم حتى اشار عليه الاحنف بن قيس بالعدول عن رأيه (ابن عبد ربه،١٤٠٤ هـ، ج٣، ص٣١٦) ، واصبح للموالي شأن ليس في الكوفة فحسب وانما في بقية

ارجاء الاقاليم الاسلامية، فيذكر التاريخ ان رجالا من الموالي كان لهم في الرأي والمشورة والعلم بالحرب مكانة، فمنهم الفضل بن بسام مولى بني ليث، وعبد الله ابن ابي عبد الله مولى بني سليم، والبختري بن مجاهد مولى بني شيبان. (الطبري، ٢٠٠٧م، ج٤، ص٢٩٦)

وتعاظم أمر الموالي في العصر العباسي ايضاً اذ غلبت الموالي على المهدي العباسي ابن المنصور(١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٦م) وكانوا سببا في تغيير منزلة وزيره ابو عبيد الله عنده، فكانوا يحرضون ضده حتى ابعده. (ابن كثير، ١٩٩٧م، ج١٣، ص٤٨٨)

اما العنصر الاخر في المجتمع الكوفي هم النصارى، سواء اولئك الذين يقطنون المنطقة قبل تمصيرها او الذين قصدوها بعد الفتح الاسلامي، مثل نصارى تغلب ونجران، وقد انسوا هؤلاء النصارى الحرية الدينية للإسلام وروح التسامح الديني ومن منطلق التوجيه الالهي " لا اكراه في الدين" فقد نالوا استحسانا من الخلفاء الراشدين(رضيَّ الله عنهم) وكذلك من بعض خلفاء بني امية مثل عمر بن عبد العزيز(٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م)، الا انهم في ايام حكم بعض الولاة قد اصابهم نوعا من الحيف ، فقد نالهم الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٥-٩٥هـ/٦٩٤-٧١٣م) والي العراق بقتل رئيس التغالبة المسيحيين واسمه (موعد) لعدم دخوله في الاسلام (الطريحي، ٢٠١٠م، ص٤٧)، كما امر الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك بن مروان(٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) بتعذيب شمعلة رئيس التغالبة لنفس السبب (اليسوعي،١٩٢٤م، ص١٨١)، وكان لبعض هؤلاء النصارى دور في الاحداث السياسية التي وقعت في الكوفة، مثل مشاركتهم في ثورة عبد الرحمن ابن الاشعث ضد الامويين سنة ٨١هـ وقيل ٨٢هـ (الطبري،١٩٦٨م،ج٦،ص٣٣٤)، فقد عاملهم الحجاج بن يوسف الثقفي(٧٥-٩٥هـ/٦٩٤-٧١٣م) معاملة سيئة بأعدهم ثوار ضد الحكم آنذاك، ومن اشهر نصارى الكوفة (خداش)، فقد كان يدعوا لبني العباس في خراسان فبلغ خبره الى اسد بن عبد الله القسري والي خراسان فاغلظ القول لأسد فقطع لسانه وسمل عينه وصلبه. (ابن الاثير الجزري، ١٩٩٧م، ج٤، ص٢٢٩)

وايجازا لما تقدم بحثه في الجانب السياسي والاجتماعي للمجتمع الكوفي نلحظ أن المجتمع الكوفي لم يكن موحدا عقائدياً وسياسياً، وانما تتجاذبه الميول والاهواء والانتماءات الولائية تحت خيمة الاتجاهات ذات التركيب الديني، كالخوارج وانصار بني امية وانصار العلويين اضافة الى حركات التمرد على الواقع الاجتماعي والاقتصادي كحركة الزنج حتى اصبحت قلوب اهل الكوفة غلظة بسبب الحروب لحقبات طويلة بسبب مقاليد الخلافة والامارة (بروكلمان، ١٩٦٨م، ص١٤٤)، وهذا كله نتاج تنوع الطيف المجتمعي الذي نزل الكوفة منذ تأسيسها من الاقوام المهاجرة اليها من الجزيرة كالجند او من هؤلاء الذين نزحوا اليها من السكان الاصليين من المناطق المجاورة اليها كالحيرة والمدائن من غير العرب

،بأعده موقع الكوفة آنذاك معسكرا لتبادل الاسرى لما تتمتع به من كونها ذات موقع عسكري وموقعا يوفر نوعا من ادامة زخم المعارك لما يوفره الموقع الجغرافي لمنطقة الكوفة من استراتيجية خاصة.

الخاتمة:

كل ما تقدم استعراضه من النصوص التأريخية يبين ان للكوفة دور ريادي في تأريخ الأمة الإسلامية وتقلبات حياتها السياسية والاجتماعية، فقد اتخذت مدينة الكوفة زمن الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) عاصمةً للدولة العربية الاسلامية ، فقد كان موضع الكوفة يجمع بين البدو الحضر اذ كانت قبل تمصيرها من خلال العرب ملتقى الرهابنية من السريان وكان اسمها بالسريانية (آكولا) وانتشرت حولها عدد من الديارات المسيحية كدير هند ودير الجماجم ودير سلسلة وغيرها، وعددا من القصور كقصر الخورنق وقصر السدير، ومنتجعا للملوك الفرس الة ان سقطة الامبراطورية الفارسية على يد العرب المسلمين، فقد وصفها سعد بن ابي وقاص للخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بانها منزلا بين الحيرة والفرات. ومن جهة اخرى كانت مدينة الكوفة ملتقى الثائرين على السلطات ومركزا للدسائس والمؤامرات ، ومن خلال التأريخ السياسي لأهل الكوفة كانت الاهواء والتيارات السياسية تأخذهم يميناً وشمالا حتى انتهت باستشهاد الامام على (عليه السلام) سنة ٤٠ للهجرة واستشهاده كآخر خليفة راشدي كانت نقطة تحول نحو حكومات الاستبداد والقسوة.

المصادر والمراجع العربية

القرآن الكريم

١. ابن الاثير الجزري، علي بن ابي مكرم،)١٢٣٣م)، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢. الاصطخري، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد،(٢٠٠٤م)، المسالك والممالك، دار صادر للنشر، بيروت.
٣. البلاذري، احمد بن يحيى ابن جابر،)١٩٨٨م)، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال للنشر، بيروت.
٤. البلاذري، احمد بن يحيى ،(١٩٩٦م)،انساب الاشراف، دار الفكر للنشر، بيروت.
٥. ابن جبير، محمد بن احمد الاندلسي،(د.ت)، رحلة ابن جبير، دار بيروت للنشر، بيروت.
٦. الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله،)١٩٩٥م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت.
٧. ابن خرداذبة، ابو القاسم عبدالله،(١٨٨٩م)،المسالك والممالك، دار صادر أفسنت ليدن، بيروت.
٨. الدينوري، ابو حنيفة احمد بن داود،(١٩٦٠م)،الاخبار الطوال، وزارة الثقافة والارشاد القومي، مصر.
٩. ابن سعد، ابو عبد الله محمد ابن سعد البصري،)١٩٩٠م)، الطبقات، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٠. ابن سلام، أبو عبيد القاسم الهروي،) د.ت)، كتاب الأموال، دار الفكر للنشر، بيروت.
١١. ابن سيده، ابو الحسن علي ابن اسماعيل،)١٩٩٦م)، المخصص، دار احياء التراث العربي، بيروت.
١٢. الصدوق، ابو جعفر محمد بن علي،(٢٠١٤م)،معاني الاخبار، العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء المقدسة.
١٣. الطبري، محمد بن جرير،(١٩٦٨م)، تاريخ الرسل والملوك، دار التراث للنشر، بيروت.

١٤. ابن عبد ربه، أبو عمر شهاب الدين احمد الاندلسي،(١٤٠٤هـ)، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٥. ابن العماد، عبد الحي بن احمد الحنبلي،)١٩٨٦م)،(، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير للنشر، دمشق.
١٦. الفيروز ابادي، مجد الدين محمد ابن يعقوب،)٢٠٠٥م)، القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت.
١٧. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي،(١٩٩٧م)، البداية والنهاية، دار هجر. للنشر، الرياض.
١٨. المجلسي، محمد تقي،)٢٠٠٨م)، روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه، دار الكتاب الاسلامي، قم.
١٩. ابن منظور، محمد ابن مكرم ابن علي،)١٩٩٣م)، لسان العرب، دار صادر للنشر، بيروت.

المراجع العربية:

٢٠. بروكلمان، كارل،(١٩٦٨م)،تاريخ الشعوب الاسلامية، دار العلم للملايين، بيروت.
٢١. ماسنيون، لويس،(د.ت)،خطط الكوفة وشرح خريطتها، دار الوراق للنشر، د. م
٢٢. جعيط ، هشام،)١٩٩٣م)، الكوفة نشأة المدينة العربية الاسلامية، دار الطليعة للنشر، بيروت.
٢٣. الزبيدي، محمد حسين،)١٩٧٠م)، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الاول الهجري، المطبعة العالمية، القاهرة،
٢٤. العلي، صالح احمد،)٢٠٠٣م)، الكوفة واهلها في صدر الاسلام، شركة المطبوعات للنشر، بيروت.
٢٥. العميد، طاهر،1978)م)، تأسيس مدينة الكوفة، العدد (٦)، ١٩٧٨، ص ١٠٦.
٢٦. قزانجي، فؤاد يوسف،)٢٠١٠م)، أصول الثقافة السريانية في بلاد ما بين النهرين، دار دجلة للنشر، عمان.
٢٧. المطران يعقوب اوجن،) د.ت(، دليل الراغبين المعجم الكلداني العربي، د. م
٢٨. الموسوي، عباس علي،)١٩٩٨م)، شرح نهج البلاغة، دار الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم، بيروت.
٢٩. اليسوعي، لويس شيخر،)١٩٢٤م)، شعراء النصرانية بعد الاسلام، العدد(٣) لسنة ١٩٢٤م،ص١٨١.